الوبيلة ، مقرونة بأنماط شتى من العادات والتقاليد القبيحة أو المستنكرة عرفاً وشرعاً !

فنحن لا تهمنا قيمة المنهج العلمي الذي نستهديه في حبكة وتنظيم وسائل الارشاد بقدر ما تعنينا الناحية السيكولوجية ذات الأثر المباشر في إحداث الانفعالات الشعورية المطلوبة ، ومع ذلك فلن يتم لنا وجه الافادة من هذه الناحية ، الأكيد نفسها ، إلا إذا درسنا بصورة منظمة ، ملامح وخصائص هذه الأوساط الدنيا سواء في الريف أو في الحضر ودرسنا كذلك حاجات ومطالب المواد الأعظم من جماهير الشعب المصري في شتى نواحي المملكة ، عندئذ يجد المرشد الاجتماعي أنه على بينة من هدفه وعلى ثقة من سلامة اتجاهه واستقامة جادته .

وهنا نستشعر مرة أخرى قيمة « المراكز الاجتماعية » كعامل هام في دراسة الطبيعة « السيكولوجية » للوسط أو البيئة التي وجد المركز الاجتماعي من أجل خدمتها وتنميتها ، إذ الواقع أن ما سيؤديه المركز الاجتماعي المزود بـ « الاخصائي السيكولوجي العملي » — « Psychologue Pratique » لن يقل من حيث قيمته وأثره ، عن النواحي الصحية والاجتماعية والفنية التي تستهدفها هذه المراكز بأخصائييها المتمكنين في هذه النواحي جميعاً .

ولسنا في مقام الاقامة العلمية المنهجية لمناهج هذه الدراسة ، ويكفينا أن نقول إنها ستعتمد كل الاعتماد على مناهج علم النفس التجريبي المعني بنفسية الفرد ونفسية الجماعة ، كما ستعتمد على علم الاقتصاد الاجتماعي وعلم الصحة العقلية ، فضلاً عن الأسس التجريبية للبيداجوجيا الاجتماعية كعلم وفن ، وفي حدود ما تقتضيه مهمة إرشاد هذه الجماعة ، على تفاوت خطوطها من الاستنارة ، من الاستعانة بأساليب الارشاد العصرية ، التي هي في ذات الوقت أساليب « سيكولوجية » لتوجيه والتثقيف والعمل .

والتدليل على صحة ما سقنا هذا الحديث إليه ، نذكر مثلاً ان السينما ، وقد أصبحت اليوم من أهم وسائل الدعاية في العالم ، تعد وسيلة محققة النفع والأثر ، من ناحية إحداث الانفعال الشعوري المطلوب الذي يعد بدوره ذريعة إلى الاقناع العقلي وتحقيق التجانس الفكري تدريجاً بين أفراد الوسط الاجتماعي المطلوب إرشاده وتهيئته لتقبل فكرة كل إصلاح اجتماعي جديد . فرب شريط سينمائي قصير من الأشرطة التعليمية أو التثقيفية التي

أحسن اختيارها واخراجها ، أجدى أثراً من مجرد محاضرة أو مقالة يقرؤها الجمهور بعد ذلك نسياً منسياً .

ولنتصور مثلاً أننا نريد أن ندعو إلى موضوع اجتماعي معين كتوحيد الزي — وهي مسألة كثيراً ما أثيرت في أوقات ومناسبات مختلفة — أفلا نرى بداهة ، وبمجرد انفعالنا الشعوري ، نحن كشعراء ، بهذه الفكرة ، الا نبدأ قصيراً يعالج الفكرة بصورة لطيفة جذابة ويعرض في مختلف أنحاء البلاد [1] ، وخصوصاً لو عُزِّز في فترات دورية بأفلام قصيرة أخرى تعالج ذات الموضوع — يكون صداقر أبلغ وقعاً وأعمق أثراً في نفوس الجماهير من عدة أحاديث ومحاضرات تلقى لمحاولة إقناعهم بالمزايا الاجتماعية التي تعود على البلاد وعليهم من « توحيد الزي » ؟

والمسرح ، كوسيلة أخرى من وسائل الارشاد الاجتماعي ذات الأثر النفسي البالغ في نفسيات الجماهير ، له بدوره خطره وأثره العميق في توجيه الشعب . ولا يجمل بنا أن ننسى أنه كان وسيلة التربية الشعبية الوحيدة عند الأثينيين القدماء ، ولقد أجدى على اليونان الاجتماعية اليونانية في تلك العصور الزاهرة ما لم تجده فلسفات حكمائهم وتفكيرهم الأعلام عند محاولتهم تحديد علم السكال أو « اليوتوبيا » .

والأمر يدوقف في المسرح أيضاً ، وإلى حدّ كبير ، على حسن اختيار القصص التي تعد للتمثيل ، فلا تكون من أنواع التافه الذي لا يهدف الى غرض ما ، بل يجب أن تعالج بعض أمراضنا الاجتماعية التي نشكو منها ، مع العمل على إيجاد عدد كافٍ من المسارح الشعبية الثابتة والمتنقلة ، تستجيب لمطالب الاصلاح الاجتماعي من ناحية ، ولمطالب وروح الطبقات الشعبية المختلفة من ناحية أخرى .

وهنا يجب ألاّ نغفل حقيقة نفسية هامة تجدر بنا أن نستهدي بها في وضع اختيار المسرحيات والموضوعات المقدمة لكل من المسرح الشعبي والسيما المتنقلة ، تلك هي ما نلاحظه على سواد الشعب المصري من أنه حاضر الملل سريع التحوّل زاهد في الاطلاع والتعمق واستخلاص المعلومات من المقدمات الطويلة الخ .

(١) من المفروض ان كل مركز اجتماعي يحتوي على قاعة للعرض السينمائي

فقمين بكل سياسة إرشادية تعني بتوجيهه عن طريق معايرتها أولاً أن تحاول فهم هذه الطبيعة وميولها ومنازع أهوائها وهواياتها كي تتوفر في استخدام الوسيلتين بأسلوب ناجح لايضجر هذه « الطبيعة » ولا يُبلّدُ من ناحية أخرى إحساسها واستعدادها للاستجابة والتأثر عن اقتناع وفهم .

وعندي ، وأنا في معرض هذه الدراسة النفسية من ناحية القيم الشعورية التي تعنى بتحويلها الى مؤثرات حسية ومعنوية تجدي في نشر وإذاعة الأنماط الاجتماعية الصالحة بين عامة أفراد المجتمع المصري ، أن الحكم على قيمة « المؤثر » وحده يجدي مجرد وكفاية من نيطت به مهمة الحكم ، وخوّلت له سلطة اختيار الموضوعات المناسبة ذات الوقع العميق والأثر البعيد في إقناع أبناء الوسط المراد إصلاحه ورفع مستواه الخلقي والمعنوي عن طريق الارشاد . أما ترك الأمر فرضي أو جعله في أيدي لجنة يختار أعضاؤها حيثما اتفق ، أو ممن تغلب عليهم النزعة الديوانية البيروقراطية « لا الكفاية الفنية » فهذا ما يؤدي بكل سياسة إرشادية ، مهما استعانت بأحدث آلات السينما وأوفر مهمات المسرح وادارته ، الى فشل ذريع وافلاس أكيد وضياع تام لما تتكبده الدولة من نفقات طائلة تنفق في هذا السبيل ! .

ولا شك أن محاولة دراسة الأساليب والطرق المتبعة في بعض البلاد الأجنبية ، وبخاصة انجلترا والولايات المتحدة الأمريكية التي أتاحتا لنا خلال الحرب العالمية الأخيرة مشاهدة نماذج من أفلامها الاجتماعية والثقافية إلى سيعين « اللجنة » أو « الاتجاه » التي ستعنى بهذا الموضوع الهام في وزارة الشؤون الاجتماعية إعانة تذكر ، بل إني لاذهب الى أبعد من ذلك فأقرر أن في الامكان اختيار المناسب الملائم لعقلياتنا والظروف مستوانا الاجتماعي من هذه الأفلام ، وترجمتها الى اللغة العربية بطريقة الدوبلاج ، ثم الاستعانة بمذيع خاص من هؤلاء الخبراء السيكولوجيين والاجتماعيين لكي يوفي مهمته التعليق بصورة أخاذة ومشوقة على حوادث الاشرطة المعروضة ، وذلك في أثناء عرضها على جمهور النظارة .

ويسرني أن أذكر في هذا المقام ، أن وزارة الشؤون الاجتماعية قد اقتنت أخيراً الى جوار سينمائي من نوع معين يمكن بواسطته عرض المناظر منظراً منظراً ، بصورة يمكن معه

التعليق على كل منظر على حدة ليسهل على جمهور « الفلاحين » أو « العمال » سبيل تفهم الموضوعات التي تذيعها وتعرضها هذه الأفلام فينفعل شعورهم بمرئياتها وتتهيأ ملكاتهم العقلية ، التي لم تتثقف بعد ، لتتفتح على ما تنطوي عليه من إيحاءات قوية وتوجيهات مقنعة وأرشادات تخاطب بأساليبها وجدانهم وشعورهم الباطن قبل أن تخاطب العقل والمنطق على طريقة المعاهد والكليات ؟! .

* * *

والحق أني لست في حاجة الى الاطالة في تأكيد قيمة « الدراسة النفسية » من حيث خلق وتكييف « المؤثر » النفسي الذي يجب أن تنطوي عليه كل دعوة إرشادية صحيحة تود لها النجاح على طول الخط ، وفيما اخترته من الأمثلة السابقة ، التي سقتها على سبيل التمثيل لا الحصر ، ما يضع نصب أعيننا الحقيقة التالية ، وهي أن سياستنا الارشادية التي تضطلع الحكومة اليوم بأوفى نصيب من أعبائها وتكاليفها ما زالت في حاجة ماسة الى تقعيدها على الأسس والقواعد التي حاولنا شرحها تباعاً فيما سقناه من أحاديث .

وأما شدة حاجتها الى تقعيدها على أساس راكز من هذه الناحية التي سقنا اليها الكلام في هذا المقال ، فأمر لا يحتاج الى طويل مناقشة ، كما أنه أمر لن يتحقق ، كما كررت ذلك مراراً ، بمجرد تأليف « لجنة » أو « لجان » لا تسندها الكفايات الملمة بأصول وظائفها واختصاصاتها العارفة بخطورة الواجب الملقى على عاتقها ، وهنا نحس أولا إذا كنا في حاجة الى بعث نبعوث الى الخارج للتخصص في النواحي التي سقنا إليها الكلام في موضوعاتنا السابقة ، فاننا أحوج ما نكون الى بعوث وبعوث لتمد بها هذا الذي اصطلحنا على تسميته بالـ Psychologie Pratique الذي يكون في مقدوره أن يعطي لموضوعات الارشاد عن طريق السينما والمسرح بل والاذاعة اللاسلكية ، روحها المسيِّرة ، وقيمها الشعورية المتجاوبة مع نفسيات الطبقات الدنيا من الشعب ، عندئذ نستطيع أن نقول إن لنا سياسة إرشادية غير مرتجلة ، وعندئذ نستطيع أن نؤمل كثيراً من الخير لهذا الوطن العزيز .

جمال الدين حمزة
رئيس قسم الارشاد الاجتماعي بوزارة الشؤون